اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة العاشرة)

عنوان المحاضرة : أبو تمام .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

محاضرة (١٠)

أبو تمام

هو حبيب بن أوس الطائى، ولد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية، وقد تعددت الروايات فى سنة ولادته، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونسب إليه أنه قال: ولدت سنة ١٩٠. والآراء متضاربة فى صحة نسبه من طيئ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطى ، وزعم قوم أن أباه كان نصرانيّا يسمّى تدوس وأنه حرّفه إلى أوس وانتسب فى طيئ. وظن مرجليوث فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه المذكور فى المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن «تيودوس» وبنى طه حسين على هذا الظن أنه يونانى الأصل ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان. ونصرانية أبيه–إن صحت–لا تنفيه من العرب ولا من طيئ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها، وجمهور من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائى صليبة ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيئ وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه، ونوّه تنويها عظيما بمن سجّلوا لها فى عصره أمجادا حربية، مما يدل على أنه طائى عريق وعربى أصيل.

وهو يشير دائما فى مديحه له إلى حرمته منه وأنه يمنى مثله، ويلجّج فى الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء. ويظهر أنه عاد فازورّ عنه، مما جعله يكثر من عتابه، حتى إذا يئس منه أصلاه بنار هجائه. وليس بين أيدينا ما يدلّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عياش، غير أن فى كتاب «الولاة والقضاة» للكندى أشعارا له تتصل بأحداث مصر بين سنتى ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها فى تلك الفترة، وفى هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرّف على عبد الله بن

طاهر فى ولايته على مصر (٢١١ – ٢١٣ هـ) وقد نوّه به وبقضائه فيها على الفتن. وفى ديوانه بيتان هجا بهما المطلب بن عبد الله الخزاعى معلنا له أن مدحه فيه كان كذبا وبهتانا، وقد ولى المطلب مصر فى سنتى ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته، فهل يعنى ذلك أنه نزل مصر مرتين: مرة فى أواخر القرن الثانى ومرة فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل فى ذلك، وخاصة أنه ليس فى ديوانه مديح للمطلب، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه.

وقد عاد إلى موطنه فى سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة فى كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسى الذى كافح بابك كفاحا مريرا، وخانه القدر فسقط فى ميدان النضال لأوائل هذه السنة. وتعمقت الحادثة نفس أبى تمام فبكاه بكاء حارّا أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلّ به مكانة ممتازة بين الشعراء وأخذ يتردّد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبى، ونراه يقول فى إحدى مدائحه له :

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا ...بالرّقّتين وبالفسطاط إخوانى

وما أظن النّوى ترضى بما صنعت ...حتى تشافه بى أقصى خراسان

وقد مضى يشيد بقائدين من قواد هذه الحروب، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيبانى والى أرمينية وقد سجّل له انتصارا حربيّا ماحقا على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصورا كيف ولّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده، يقول :

ولما رأى توفيل راياتك التى ...إذا ما اتلأبّت لا يقاومها الصّلب

تولّى ولم يأل الرّدى فى اتّباعه ...كأن الرّدى فى قصده هائم صبّ

كأن بلاد الروم عمّت بصيحة ...فضمّت حشاها أو رغا وسطها السّقب

(وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد فى تلك السنة، وكأنه شدّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبى القائم على شرطة بغداد وأعمالها، ونراه يشيد بانتصاراته على المحمّرة الذين ثاروا بالجبل شمالى إيران لسنتى ٢١٨، ٢١٩ إشادات رائعة .

وما نكاد نتقدم فى سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيّار بطبرستان، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغرا إلى «سرّ من رأى» فى سنة ٢٢٥ فيقتل ويصلب بجانب بابك.

وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر وينتوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبى دلف، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه فى غيابات السجون، ويموت، فيصلب بجانب بابك، ثم يحرق بالنار التى كان يعبدها من دون الله، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة :

الحقّ أبلج والسيوف عوارى ...فحذار من أسد العرين حذار

وقد صوّر فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذى أورده موارد الهلاك، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك ومازيار يقول:

ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه ...حتى اصطلى سرّ الزّناد الوارى

نارا يساور جسمه من حرّها ...لهب كما عصفرت شقّ إزار

صلّى لها حيّا وكان وقودها ...ميتا ويدخلها مع الفجّار

والمديح أهم الأغراض التى تتجلّى فيها خصائصه، وهو فى كثير منه، بل فى جمهوره، يحتفظ بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب، مودعا فيها كثيرا من لفتاته وخواطره النادرة التى تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يخضع التفكير للشعر، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق، وهل هناك جانب فى شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيرا متصلا، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها فى معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله فى تصوير أيام عشقه الماضية :

أعوام وصل كاد ينسى طولها ...ذكر النّوى فكأنها أيام

ثم انبرت أيام هجر أردفت ...بجوى أسى فكأنها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ...فكأنها وكأنهم أحلام

وقد ردّد كثيرا فى تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث، حتى ليقول ضجرا متأففا منه ومن سياسته الخرقاء (٤):

لقد ساسنا هذا الزمان سياسة ...سدى لم يسسها قطّ عبد مجدّع

تروح علينا كلّ يوم وتغتدى ...خطوب كأن الدهر منهن يصرع

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومى والمتنبى الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم، وأيضا فإنه هو الذى ألهم المتنبى اعتداده

بنفسه وما طوى فى ذلك عنده من فخر محتدم، واقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه فى مديحه للحسن بن سهل :

وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرق ...وشرّقت حتى قد نسيت المغاربا

خطوب إذا لاقيتهنّ رددننى ...جريحا كأنى قد لفيت الكتائبا

وقد يكهم السيف المسمّى منيّة ...وقد يرجع المرء المظفّر خائبا

وكنت امرءا ألقى الزمان مسالما ...فآليت لا ألقاه إلا محاربا

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى نلقاه عند المتنبى مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عودا وأصلب من الزمن، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية.

ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة، من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذنابها المزركشة، وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع، يقول :

غنّى فشاقك طائر غرّيد ...لما ترنّم والغصون تميد

ساق على ساق دعا قمريّة ...فدعت تقاسمه الهوى وتصيد

إلفان فى ظلّ الغصون تألّفا ...والتفّ بينهما هوى معقود

يتطّعمان بريق هذا هذه ...مجعا وذاك بريق تلك معيد

الرثاء:

مراثيه لابن حميد الطوسى الطائى, وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة ...دما ضحكت عنه الأحاديث والذّكر

فتى مات بين الطّعن والضّرب ميتة ...تقوم مقام النصر إن فاته النّصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه ...من الضّرب واعتلّت عليه القنا السّمر

وقد كان فوت الموت سهلا فردّه ...إليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر

ونفس تعاف العار حتى كأنما ...هو الكفر يوم الرّوع إن فاته الكفر

فأثبت فى مستنقع الموت رجله ...وقال لها من تحت أخمصك الحشر

الاعتذار :

وكان يجيد العتاب والاعتذار، ومن أروع اعتذاراته ما قدمه لابن أبى دؤاد حين غضب عليه لنيله من مضر فى إحدى قصائده لأبى سعيد الثغرى الطائى، فقد أحسّ أنه أذنب ذنبا عظيما وأخذ يستعطفه بمثل قوله :

أتانى عائر الأنباء تسرى ...عقاربه بداهية نآد

نثا خبر كأن القلب أمسى ...يجرّ به على شوك القتاد

كأن الشمس جلّلها كسوف ...أو استترت برجل من جراد

بأنى نلت من مضر وخبّت ...إليك شكيتّى خبب الجواد

الفخر:

فله فيه قصائد ينوّه فيها بقومه من طيئ تنويها على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ...وسمّى فيهم وهو كهل ويافع

مضوا وكأن المكرمات لديهم ...لكثرة ما أوصوا بهنّ شرائع

بهاليل لو عاينت فيض أكفّهم ...لأيقنت أن الرزق فى الأرض واسع

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.

- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .